الفصل الثالث عشر

غرباء على الأبـواب

قبل عام ١٩٣٣م وقبل مجيء الأمريكان لجزيرة العرب كانت جدة هي المكان الوحيد في مملكة ابن سعود الذي يسمح لغير المسلمين بالتواجد فيه. وكان تحركهم مقيداً بمناطق معينة على السهل الساحلي. ولم يكن بمقدورهم التجوال في غير هذه المناطق إلا بإذن مسبق، وكل من يخرق ذلك كان حكمه الطرد من البلاد. وكان عدد الأوربيين آنذاك نحو خمسين نفساً، قد يزيد عددهم أو ينقص حسب المواسم والمناسبات وحاجة الوظائف. وكانوا يسكنون ضمن الأحياء المحددة لهم في المدينة التي لا يزيد تعداد سكانها عن الثلاثين ألفًا. وكان معظم الأوربيين من أعضاء الوفود والقناصل والدبلوماسيين وشبه الدبلوماسيين. وكان البعض يعمل في الشحن البحري والتجارة في المملكة. وكان جلهم من البريطانيين والإيطاليين والهولنديين، وكان الروس والبولنديون والألمان قد بدؤوا يتوافدون على الجزيرة بغرض إيجاد سبل للتجارة. وكان الأوربيون يتدرجون في وظائفهم من السفراء إلى عمال السيارات، وكانت مجتمعاتهم مغلقة رغم ديمقراطيتها وانعدام الفوارق الاجتماعية. ورغم بعض المضايقات إلا أنهم كانوا سعداء يلعبون كرة التنس والجولف والكريكيت في مجموعات دون وجود أندية. وفي المساء يستمعون للموسيقى ويلعبون الورق ويغنون ويرقصون مع الأكل والشرب المعتادين.

وعند إقامة الحفلات كان الجميع يدعون لها وكانت النساء تأتي لتلطيف الأجواء في مجتمع جله من غير المتزوجين.

لم تكن الحياة سيئة في جدة بأي حال، فقد كان الطقس جيداً لسبعة أشهر في السنة وسيئًا لخمسة أشهر. وكانت هناك مقبرة تعرف بالكنيسة خارج السور الجنوبي للحارة الأوربية خصصت للنصارى الذين يموتون بالمملكة ومن الدبلوماسيين والمقيمين الآخرين.

ولقد أدى المجتمع الأوربي دوراً مهمًا في نشاطات جدة مع أنه لم يكن دوراً غالبًا. وكان مجتمع جدة شاملاً لأسر وعائلات مهمة كان لها وجود مطول في بوابة المملكة ونافذتها للعالم. وكان معظمهم من المهاجرين من موانئ الخليج الفارسي ومن الهند وحضرموت ومصر وسوريا ونجد (خاصة من القصيم). فكانت عائلة قابل تجاراً رواداً منذ زيارة حاكم الحبشة في القرن الثامن عشر، وكانت عائلة علي رضا من الخليج الفارسي من مؤسسي التجارة في جدة، خدموا ممثل البرلمان التركي وحكام جدة تحت حكم الأتراك والأشراف والوهابيين. ومن العائلات الشهيرة عائلة الفضل من نجد ولهم فروع في كراتشي وبومباي وكانت لهم مكانتهم المرموقة في السوق المحلي، وكان رأس العائلة قد اتهم بمحاباة الوهابيين وقضى سنوات في سجون الأشراف، ولكنه في النهاية تقلد منصب رئيس المجلس الاستشاري. وكانت هناك عائلات وأسر أخرى لم تكن أقل من رصيفاتها في موانئ الشرق الأخرى. وكان جل تجار جدة متميزين ويعملون جاهدين على تنمية ثرواتهم، وكانوا يحسنون وينفقون بسخاء، ولم يكونوا جشعين بل كرماء بما يفرضه عليهم

دينهم، كانوا يخشون الله ويعملون بجد، وقد استطاعوا ملء الفراغ بين أسلافهم في العالم القديم وأحفادهم في عالم متجدد بأن مدوا جسراً بينهم في ماضي أسلافهم وبين مجتمع الحاضر، وبنوا لأبنائهم ثروات ومكانة ونفوذاً في مدينة جدة المرتبطة تاريخياً بأمنا حواء ولا نعلم إن كان المستقبل سيحمل ما هو أفضل، إذ ليس بوسعنا أن نحكم على الغيب.

هكذا كانت الحياة في جدة التي كان ابن سعود من وقت لآخر يصدر بشأنها تحذيرات لمجتمع لا يعرفه، ولم تكن لابن سعود علاقة عاطفية بجدة ولكنه لم يكن بد من زيارتها لدورها الهام في الاقتصاد والتجارة والعلاقات الدبلوماسية. وفي المراحل الأولى كان من الصعب استيعابه في أي مكان آخر مع حاشيته العريضة التي كانت ترافقه إينما ذهب.

وكانت جدة مدينة محلية آنذاك ولم تكن على مستوى المدن العالمية، وكانت مبانيها واسعة في مظهرها ولكنها كانت غير ذلك من الداخل، فلا يوجد بها التصريف الكافي والخدمات الصحية اللازمة. وبعد الثورة الوهابية واعتلاء الملك العرش لم يكن من بد سوى احتلال أحد أضخم المباني، وكان داراً للشيخ محمد نصيف أحد أعرق تجار العقار في جدة، وكان معروفاً بدعمه للمذهب الوهابي مما جعله يصطدم مرات مع السلطات الشريفية. ولإكرام الملك أخلى وعائلته كل ما كان بداخل المنزل. ومهما كانت التضحية التي قدمها الشيخ نصيف فقد كان الملك نفسه محرجاً عند زيارته لجدة لما يظن أنه قد يسببه لمحمد نصيف من مضايقات. ولكن إنشاء "القصر الأخضر" أزال هذا الحرج للجميع ووضع القصر الأخضر بجانب الثكنات العسكرية خارج جدة في أحسن المواقع نقاءً آنذاك.

وسكن الملك هذا القصر بعد نهاية رمضان خلال زيارة قصيرة لمدة أسبوع واحد لجدة، وكان الجو جافًا رائعًا بسبب الرياح الشمالية وعدم هطول الأمطار التي تركت الصحراء خالية ومهجورة، وقد كان ذلك الأسبوع أحد أهم الأسابيع، إن لم يكن أهمها، في تاريخ الجزيرة العربية، فقد شهد حضور الملك لمقابلة تشارلز كرين الذي كان مقرراً له وصول جدة في ٢٥ فبراير مع جورج أنطونيوس. وكانت هذه المناسبة هي الأهم طيلة وجوده في جدة، فقد حضر الملك دعوات للعشاء في القصر، وكذلك الدعوة المقدمة من بلدية جدة والتي شهدت تركيزاً للانتباه لمد مدينة جدة بشبكة لتوزيع المياه. ودارت بين الملك وضيفه مناقشات في كل المشاريع التي تبدو ذات جدوى اقتصادية. وانتهت المفاوضات إلى أن يقوم السيد كرين بتوفير مهندس جيولوجي للحكومة السعودية ليقوم بفحص خامات المعادن في جزيرة العرب والاحتمالات الأخرى على أن تقدم له الحكومة السعودية كل التسهيلات الأخرى من نقل ومستلزمات تنقيب. وحققت الزيارة هدفها واستدعى المرشد السني وحامل مفاتيح الكعبة من مكة لمقابلة السيد كرين القادم من العالم الجديد، وتبودلت الهدايا، وقدم الملك للسيد كرين حصانين عربيين وقدم له كرين صناديق تمر أحضرها من كليفورنيا! وقال: إنه اشتراها من سان فرانسسكو ببضع دولارات. وكان ذلك كجلب فحم رخيص إلى نيوكاسل (أي كمن «جلب التمر إلى هجر..») ولما غادر كرين سألني: إن كنت أحب التمر! وأهداني التمر وقال لي: لا تبلغ كرين بذلك. آتت زيارة كرين لجدة أكلها بسرعة، فخلال ٦ أسابيع وصل تويتشل ليكون بيننا. وسأحكي باقي القصة في فصل آخر.

وكانت باقي أعمال الملك خلال هذه الزيارة لجدة أعمالاً رسمية، فبعد وصوله في اليوم الأول وتلقيه السلام من كبار الشخصيات والمسؤولين نظم حفل استقبال في القصر لكل الدبلوماسيين بحضور عميدهم آنذاك المستر حكيموف الروسي الذي رُقي لذلك المنصب بعد اعتراف روسيا الكامل بسلطة الوهابيين في المملكة. وقامت الحكومة البريطانية بعمل الشيء نفسه بعد فترة وجيزة. بعد استقبال الدبلوماسيين استقبل الملك أفراد الجالية الأوربية من غير الرسميين. وبعد فترة استقبل الدبلوماسيين وممثلي الغرف التجارية الأوربية في جلسة خاصة لمناقشة المصالح المشتركة، وقد شرفني الملك بحضور حفل شاي دُعيت له كل الجالية الأوربية من دبلوماسيين وغيرهم.

وفي حفل بلدية جدة أتيحت للملك الفرصة للاجتماع بالدبلوماسيين ثانية، في هذا الأثناء توافد الكثير من أفراد الأسرة المالكة على جدة لأداء الحج وجاؤوا بأخبار تفيد بهطول أمطار غزيرة في المناطق الشرقية، وذهب فكر الملك إلى مراعي الربيع والصيد وتلهف لذلك متى ما سنحت له الفرصة بعد إنهاء مهامه في الحجاز. وفي تلك الأيام كان قد فرغ من وضع اللمسات الأخيرة على مسودة الاتفاقية مع فرنسا التي كان يمثلها روجر ميغريه، الضابط المتقاعد والدبلوماسي السابق في المغرب. أُعدت النسخة النهائية من الاتفاقية ووافق عليها الملك وأرسلت للتوقيع في باريس. وكان الفرنسيون يريدون اتفاقية مراجعة فيما يخص سوريا بدلاً من تلك التي وُقعت عام ١٩٢٦م والتي انتهت عام ١٩٣٠م. وكان لابد من الدخول في مفاوضات للوصول لصيغة نهائية مرضية للأطراف؛ لذا تم تأجيل المفاوضات لوقت لاحق. ومرة أخرى

أطلت مشكلة العملة السعودية برأسها، وتم عقد مؤتمر بين موظفي الدولة والتجار وممثلي الغرف التجارية الأوربية لمناقشة السبل اللازمة لإيقاف انخفاض الريال. ونتج عن ذلك إصدار قرارات في جدة خلال أيام قليلة وكانت كما يلي:

١- حظر مطلق لتصدير الذهب خارج المملكة، حيث تبين الآن فقط أن تلك هي الوسيلة الأفضل لدعم الريال.

٢- تحديد سعر الريال عالميًا بعُشر الجنيه الذهبي البريطاني وإصدار أحكام رادعة على المخالفين.

٣- الاتفاق مع البنك الهولندي (الشركة الهولندية للتجارة) بقبول سعر الريال دون تحديد سقف للتحولات إلى الخارج.

أدت هذه القرارات إلى متاعب في بعض الدوائر التجارية ولم يكن من شك في كونها تخدم الصالح العام، بينما كان رصيد الحكومة كافيًا لتغطية مبلغ يصل إلى نحو ١٥٠,٠٠٠ جنيه ذهباً في قيمتها الاسمية.

وقبل عودة الملك لمكة أقيم حفل صغير في القصر قدم فيه الشيخ نصيف سيفًا للملك من صنع يمني، تقبله الملك بسرور، وتحدث الملك لحد قناعتنا وسعادتنا عن السيوف قائلاً: "إن السيف اليمني يأتي في المرتبة الثالثة بعد العجمي الفارسي ذي النوعين المشهورين الأول: سيوف قرى خراسان والثاني سيوف الدبان. أما أفضل السيوف فهو السيف الهندي المصنوع من الفولاذ الأبيض. وكانت كل سيوف آل سعود محفوظة لدى الملك ثم توزعت بين أبنائه الكبار فيما عدا سيفين: «الأجرب» الذي أهداه عمه عبدالله بن فيصل لآل الخليفة بالبحرين، وسيف آخر يعرف «بالزحيف» اختفى منذ سنين.

وزار الملك جدة زيارة قصيرة مرة أخرى قبيل الحج لمقابلة ومناقشة خطط المستر تويتشل الذي كان قد وصل يوم ١٦ أبريل وتم اختيار خالد القرقني الذي كان يعمل لدى شركة ألمانية حديثة الإنشاء في جدة وفي ذات الوقت مستشاراً في مجلس الملك، لمرافقته في جولاته. وكانت الخطة تُفضي بالفحص في المناطق حول جدة عن المياه غير أنهم حولوا مهمتهم وسافروا على امتداد الساحل حتى ضباء حيث كشفوا عن مؤشرات لوجود النفط. ومع النفط اكتشفوا الذهب ومعادن أخرى. وكان احتمال وجود النفط على خط الساحل قد عُرف منذ سنين، فخلال الحرب العالمية وبعدها كان الملك حسين قد أحضر الخبراء بهدف تنمية المنطقة. ولكن اتضح لاحقًا أن ما قاله تويتشل لم يكن صحيحًا، فلا وجود في سهول تهامة للمعادن أو للنفط بكميات مفيدة في يومنا هذا. ولكن النفط الحقيقي اكتشف فيما بعد في مناطق أخرى من المملكة، فخلق ذلك حلمًا وتفاؤلاً معاكسًا لحالة اليأس السائدة وتدحرجت الكرة نحو تعويض ذلك الكساد الذي ساد رغم الجهود الجبارة لتعويض الخسارة الكبيرة في إيرادات الدولة الناتجة عن تقلص أعداد الحجيج والنقص الحاد في تدفق الأموال لإنقاذ الاقتصاد المتردي آنذاك. كان المعدل المعقول لعدد الحجيج هو ١٠٠,٠٠٠ حاج من خارج المملكة. انخفض هذا العدد إلى ٨٠,٠٠٠ عام ١٩٣٠م ثم وصل إلى ٤٠,٠٠٠ في العام الماضي. لقد نتج انخفاض الدخل عن انخفاض أعداد الحجيج رغم أن متوسط صرف الحاج الواحد لم ينخفض. وكان على وزارة المالية مجابهة هذا الموقف بتحديد الأولويات وتحديد المبالغ المخصصة للإدارات والوزارات المختلفة التي كان يديرها

الملك بنفسه، ومن بينها كذلك مصروفات عائلة الملك ومصروفات الدفاع والأمن والشؤون الدينية والزكاة والضيافة ونحو ذلك. وتفاقمت المسألة المالية يوم بعد يوم وحارت الحكومة في الأمر بحثاً عن المخرج، وكان الحل الأسهل في قرض محلي لدفع الرواتب الصغيرة للموظفين والشرطة والجيش والحراس والعمال والكتبة وغيرهم.

وكان هناك نحو ١٠,٠٠٠ موظف بمعدل راتب يصل إلى ٢٠ ريال للفرد، وهذا يعني ٢٠٠,٠٠٠ ريال شهرياً. وهنا يعني أن تأخير دفع الرواتب لأربعة أو خمسة شهور، وهي أكثر فترة يمكن تحملها يتطلب قرضاً في حدود ٨٠,٠٠٠ أو ١٠٠,٠٠٠ جنيه ذهباً. وكان الحل للموظفين هو الاستدانة من الجزارين والبقالات والمتاجر حتى تُصرف رواتبهم. وهؤلاء بالطبع سوف يسجلون فوائد على الزبائن على تأخير المبالغ المستحقة عليهم. واضطر الجميع للقيام بأعمالهم دون استلام الرواتب. أما الفساد الذي كان موجوداً سلفاً فقد تفشى وازداد وصار ممارسة عادية، اعتاد عليه الناس في جزيرة العرب. وقد أعدت الحكومة خطة لاقتراض ٣٠٠,٠٠٠ جنيه ذهباً من البيوتات التجارية بالرغم من تأخير الحكومة تسديد بعض الديون القديمة. وكان ذلك سراً لكيلا تنكشف أسرار الدولة وتفقد مصداقيتها وتتوقف البضائع التي كانت تصب في مستودعات الدولة، كذلك تقرر زيادة الضرائب كأحد الحلول لمجابهة الموقف الحالي.

هذا الموقف أدى مرة أخرى إلى تفاقم موضوع انخفاض العملة السعودية، وتعرضت آمال التجار في تحقيق الأرباح المرتقبة جراء الإجراءات الأخيرة

للخطر، ولو أن سعر الريال ثبت على قيمة اسميته لما كان هناك اعتراض على الإجراءات الجديدة ولثبت الريال على ٢٢ قرشًا. هذا الأمر مس الفقراء أكثر من الأغنياء، وقد تناول الناس هذا الموضوع خلال عطلة العيد في منى. وكان الوقت قد مضى لتناول موضوع هبوط سعر القرش ومكوناته، أي الهللة التي تعادل ربع قرش. ونستطيع القول بأنه منذ بداية النظام الوهابي وحتى عام ١٩٣١م كانت الحكومة قد ضخت في الحجاز مبلغًا في حدود ١,٥٠٠,٠٠٠ ريال (بما ذلك الإنصاف والأرباع الفضية) ونحو ١٠,٥٠٠,٠٠٠ قرش (بأنصافها وأرباعها) ولم تكن هذه العملة قد فُرضت في نجد، إذ كان دولار ماريا تريزا هو المتداول بانتظام مع ظهور الريال إلى جانبه لدفع رواتب الدولة والضرائب.

وقد يكون سبب هبوط العملة المحلية آنذاك هو فقدان العملة المعدنية أو أو ادخارها وتعمد الصرافون والتجار التعامل بأسعار أقل من السعر المعلن، فعند شرائه من المستهلك مقابل البضاعة يحسب بنحو ١٨ أو ١٧ قرش، وعند بيعه يحسب على أساس ٢٥ إلى ٣٠ قرش للريال الواحد. ويذهب الفرق إلى جيوب التجار في شكل ربح إضافي، وكان على الزبون قبول هذه الأسعار أو أن يترك المتجر دون بضاعة. وكان الحال هو ذاته مع الصرافين عندما يريد الحاج شراء ريالات عند قدومه، ومن ثم بيعها لشراء جنيهات الذهب بعد انتهاء الحج أو عند مغادرتهم مكة مما أدى إلى انخفاض الريال. وفي النهاية بعد مشاورات قررت الحكومة سحب العملة المعدنية من التداول لدى الحكومة نفسها وتجار جدة ومكة والمناطق الأخرى مثل: المدينة المنورة وينبع. وقدر أن هذا القرار سيؤدي إلى سحب ثلثي العملة من التداول. إلا أن حقيقة

ما سحب لم يتجاوز النصف؛ لأن الحكومة قدرت الكمية المتداولة خطأ وتركت باقي العملة المعدنية لصرافين ينوبون عن الحكومة للحفاظ على السعر الرسمي الذي هو ٢٢ قرشاً للريال، ومنحهم حرية التداول بهذه التسعيرة مقابل عمولة محددة، إلا إن هذه القرارات جاءت متأخرة جداً لتحمي الحجيج من الخسارة التي عانوا منها مسبقًا. وذهب إثر المشكلة على الحكومة نفسها حيث انهارت جزئيًا الترتيبات المسبقة التي وضعت لحماية الريال ليهبط سعره إلى ١١ ريال للجنيه الذهب. ولم يكن بوسع البنك الهولندي مد فترة الحج لحماية رصيده من انخفاض الريال، وكان لابد من استعراض هذه التفاصيل عن انخفاض سعر الريال لإيضاح أن المشكلة لم تكن كامنة في الحفاظ على هذا السعر أو ذاك، بل في تدهور أرصدة الحكومة السعودية. ولم تكن موارد الحكومة شبه المعدومة قادرة على تعويضها، وكان هناك صرف غير مرشد بما في ذلك المبالغ الضخمة التي كان يحتاجها الملك نفسه وهباته وجيشه في الظل. وكان هناك نقد بشأن شراء السيارات ببذخ ودون ترشيد من مختلف الأنواع، ولم يكن بوسع وزير المالية فعل شيء، وتردى الوضع أكثر وجفت مصادر القروض، وطُلب من الحكومة البريطانية تقديم العون ولكن النظام البريطاني كان صارمًا فيما يخص المملكة العربية السعودية، ولم تكن تمنح قروضاً إلا بشروط وضمانات وقيود سيراً على النمط القديم الذي كان يفرض على الدول، وتم الاتصال كذلك بفرنسا وإيطاليا اللتين كانت المحادثات تجري لإبرام اتفاقيات معهما، ولكنهما لم يكونا في موضع يسمح بتقديم العون. ولم يكن هناك من حل سوى إعادة ترتيب الأمور بإعادة هيكلة الجهاز

الإداري، وهو أمر لم يكن ليجد الترحيب من القائمين على تلك الأجهزة. وبقي الأمل في أحسن الأحوال ولم يكن هناك سوى الأمل في ضربة حظ أو مغامرة لتحسين الوضع. وفي أحسن الأحوال لم يكن هناك سوى بصيص من أمل، وصار الوضع محبطًا وكان الملك حزينًا. وكان عليه إطالة بقائه في الحجاز في ذلك الصيف الحار يراقب الأزمة تتفاقم من سيئة إلى أسوأ، وهو غير قادر على فعل شيء. وفيما عدا زيارة قصيرة للرياض في شهر ديسمبر يكون الملك قد أمضى في الحجاز أربعة عشر شهراً، وهي أطول فترة قضاها في الحجاز منذ توحيد المملكة. ولم يكن ما حمله فجأة للعودة إلى الرياض في يونيو شوقه لتلك الديار حيث ترك ابنه فيصل ووزراءه ليجدوا حلاً لتلك الأزمة المالية الحادة بقدر المستطاع، وسافر الملك جواً إلى الرياض في ٢٩ يونيو وظل هناك في داره حتى موسم حج عام ١٩٣٢م.

كان سبب سفره إلى الرياض غريبًا، وسبق أن ذكرت أن جميع مصادر التمويل كانت قد جفت. تلك حقيقة، ولكن كان هناك استثناء واحد لم يكن قابلاً للإعلان. ولم يكن هذا المصدر مقبولاً، وقد يرى البعض، على غير وجه حق، أنه مصدر يجب تجنبه. كان ذلك هو الاتحاد السوفييتي الذي كان رائدًا في اعترافه بالمملكة عام ١٩٢٦م، وأول دولة حولت قنصليتها في المملكة إلى سفارة عام ١٩٢٩م، وكان أول سفير لهم مسلمًا تقديراً واحترامًا للحركة الوهابية، وكانت روسيا تريد تطوير التجارة مع الحكومة الوهابية. وفي عام ١٩٢٧م وصلت سفينة روسية إلى جدة محملة بالبضائع الروسية بغرض عرضها في أسواق الحجاز وبأسعار منخفضة لحد بعيد، واحتج التجار

المحليون المنافسون مما حمل الحكومة السعودية على حجز البضاعة والتخلص منها بشروط مرضية للأطراف المعنية. ولم تكن البضاعة الروسية ذات جاذبية في الحجاز، وبعدها تم حظر البضائع الروسية ومنع دخولها إلى الموانئ السعودية. ولكن هذا، وإن كان أمراً محزناً، لم يوقف محاولات السوفييت واهتمامهم بالجزيرة العربية ذات المكانة والنفوذ في كل العالم الإسلامي. غير أن تجارة الروس حققت نجاحاً في اليمن، وكان ذلك مثالاً لقطر فقير استفاد من غيره. وشم الملك رائحة الشهد في هذا المثال، وكان المسؤولون في جدة قد يئسوا من أي حل للأزمة، فقد كانوا يعتقدون، مصيبين أو مخطئين، أن روسيا هي العدو الحقيقي للأنظمة الملكية.

وفي ظل الأحوال الاقتصادية المتردية بدأ في التفكير في موضوع التجارة مع السوفييت، فالبضاعة الروسية الرخيصة وبقروض ميسرة طويلة الأجل أمر لا يمكن رفضه في مثل تلك الظروف؛ لذا تم دعوة ممثل الاتحاد السوفييتي إلى غرفة الاجتماعات بعد أن غادرها ممثل بريطانيا، وفي اللقاء بحثت جوانب عدة ووضحت الرؤيا في جو ودي حقاً، وخرج الملك إلى الصحراء تاركاً لنائبه المهمة الصعبة التي كانت تقف بين وجود الدولة ووقوع الكارثة، وكانت الأولوية تقدير حاجة الدولة للبترول الذي كان أغلى من الخبز. وبعد فترة وصلت سفينة روسية بشحنة وجدت الترحاب ورست في ميناء جدة، وحسب علمي لم يدفع أي مقابل لتلك الشحنة من البترول، وأدرك الروس بعد سنوات أن تقديم العون للمملكة كان عملاً من جانب واحد ليس له ما يقابله من جانب المملكة. ودعني أتذكر الأحداث التي تلت، ففي عام

١٩٣٨م قررت الحكومة السوفيتية أن توقف جهودها الخاصة بإرساء أسس للتعاون مع المملكة واليمن، وطلبوا من ممثليهم في اليمن والمملكة تجميد أنشطتهم ورفع تقارير والعودة إلى موسكو، نصح الأصدقاء حكيموف بعدم العودة إلى روسيا ولكنه استصغر النصائح نسبة لما حققه من مكانة في السلك الدبلوماسي الروسي بنهجه السياسي. وكان هناك طبيب روسي ضمن الوفد الموجود في جدة كانت لديه أسبابه الخاصة بعدم الاكتراث للنداء الصادر من رئاسته، وبعد محاولة فاشلة أجبر على ركوب السفينة لتعود به مع مرافقيه إلى بلاده، وبمساعدة صديق فرنسي استطاع الهروب بقارب من السفينة بينما كانت السفينة تستعد للإبحار. هرب الطبيب وأشهر إسلامه وحمد الله (رب البيت) ووجد عملاً لدى الحكومة وظل حتى يومنا هذا. أما بقية أعضاء البعثة، بما فيهم السفيران وامرأتان (طبيبة وسكرتيرة) وستة موظفين فقد وصلوا لاحقًا إلى موسكو حيث تمَّ تجميدهم، وبعدها لم يحاول أي من الأطراف إعادة العلاقات الدبلوماسية التي انقطعت. وغاب النجم الأحمر عن سماء المملكة وتعكر مزاج الدولة بالأزمة الاقتصادية الحادة التي اقترنت بحادثة أخرى غير متوقعة.

جاءت شركة ماركوني في مايو مع الأجهزة اللاسلكية التي طلبتها الحكومة بصحبة مهندسين أحدهما بريطاني والآخر مصري (للأجهزة المخصصة لمكة والمدينة) لتركيبها في الأماكن التي خصصتها الحكومة السعودية، وتركز الانتباه أولاً على أجهزة اللاسلكي النقالة الأربعة التي كانت ستُركب على سيارات فورد. وانشغل المهندسان بوسيكولت والمصري كردي

في تركيبهما للأجهزة، وبمجرد تجهيزها للعمل استلمها فنيو الحكومة وبدؤوا في تشغيلها ليل نهار دون توقف للتبريد أو الصيانة. وفجأة جاء بلاغ بتوقفها عن العمل. وتم الإعلان بأنهما تلفت بشكل نهائي إذ لم تكن مطابقة للمواصفات بأن تعمل لمدة ساعات متواصلة، وكنت أنا في الواجهة. وبعد مناقشة مع المهندس بوسيكولت أوضحت للملك أن العيب ليس في الأجهزة، بل في الفنيين، ورفض الملك هذا التوضيح، ولكنه قبل اقتراحي بإجراء تجربة على الأجهزة. وطلبت حضور بعض كبار المسؤولين لمعاينة التجربة في جدة والانتظار لنرى إن كانت الأجهزة ستتوقف. وبدأت التجربة عند الفجر في جدة في يوم حار ورطب. وعند الظهيرة اقتنع المسؤولون بأداء الأجهزة وطلبوا إيقافها، لكن تحت الحاجة بقوا حتى الغروب. وعندها أعربوا عن كامل قناعتهم بسلامتها وطلبوا ترك المكائن لترتاح وقلت لهم سترون أكثر من ذلك من هذه الأجهزة عندما يبرد الجو ليلاً، إذ إنها تستطيع أن تعمل لثمان وأربعين ساعة في الجو البارد دون توقف، وطلبوا أن نرحم الأجهزة لتعمل لساعات أقل. ولم يذكر أحد شيئًا عن المواصفات ولم يذكر الملك شيئًا عن الأمر عند عودتي إلى مكة.

غير أني لم أكن أعلم أن الأسوأ كان في انتظاري، فالجهازين النقالين المخصصين لجدة ومكة صارا يتراسلان مع بعضهما كالطيور تحت مرأى ومسمع المهندسين ولكنهما لم يكونا مسموعين في المدينة على مسافة ٢٥٠ ميلاً وهي مسافة ضمان الأجهزة حيث لم يستطع جهاز تلفونكن الألماني، الذي أقامه الأتراك هناك منذ عقود، التقاط رسائلنا، بينما كان يخاطب الجهاز

القديم في جدة! كان هناك خطأ ما، وقمنا نبحث عن السبب، فالأجهزة نجحت في الاتصال بين مكة وجدة على مسافة ٤٥ ميلاً. وبدا كما لو كان هو مداها، وبالتالي فهي أجهزة غير مفيدة. غضب الملك غضباً شديداً، وبعد نقاش مع المهندس بوسيكولت اقترحت ترك أحد الأجهزة معه في جدة، ونذهب أنا وكردي للمدينة للتخاطب من هناك. وقلت: لو نجحنا سنذهب شمالاً إلى العلا على مسافة ٤٠٠ ميل من جدة، ثم إلى تبوك ثم الجوف، ثم قريات الملح، للتحقق من المدى الذي تستطيع الأجهزة التخاطب منه، والذي ربما يصل إلى ألف ميل، ولم يكن الملك على استعداد لقبول هذا النوع من المزح، وقال باستخفاف عليك أن تطلب شفاعة الرسول لتعمل تلك الأجهزة. وانتهى ذلك المساء بإحباط ويأس. وفي الصباح كان الملك يبتسم كأن شيئاً لم يكن، ووافق على الاختبار الذي اقترحته. وقبل أن يغير رأيه، انطلقنا في الصباح، أنا والكردي إلى المدينة المنورة. وفي السادس من يونيو أي بعد ذلك بثلاثة أسابيع غادر الملك للرياض بعد أن علم أن الاتصال أصبح ميسوراً على الأقل بين جدة والمدينة المنورة والعلا، وبذلك ألغى الملك رحلة كانت مقررة للمدينة بعد أن تيسر له الاتصال بها. وقامت السلطات بتجهيز اللازم لرحلته لمسافة ٥٠٠ ميل شمال المدينة ولم يكن لي الخيار في اتخاذ القرار بعدم المشاركة، وكنت سعيداً بتلك المدينة والواحات حولها. وفي ظهر يوم ١٩ يونيو خرجت لمشاهدة خرابات مدينة اليهود حين طلب مني بوجه عاجل مقابلة الحاكم الذي كان قد تلقى برقية شديدة اللهجة من الملك يتساءل فيها عن سبب وجودي في المدينة، وأمره بتسهيل سفري مع الآخرين فوراً إلى العلا

ثم عودتنا للمدينة خلال ثلاثة أيام فقط. وخرجنا في أقل من أربع وعشرين ساعة سالكين أسوأ الطرق متتبعين خط سكة حديد الحجاز والتي كانت بقناطرها ومحطاتها ومساراتها في أسوأ أحوالها التي تركها عليها لورانس ورفاقه خلال الحرب العالمية الأولى، ولم تحظ بعد ذلك بأية عناية. وصلنا العلا بعد خمسة أيام وأمضينا يومًا أو يومين لتركيب أجهزة الاتصالات مع جدة على مسافة ٤٠٠ ميل. وكان الملك على وشك مغادرة مكة عندما وصلته رسالتي بأنه قد تم تركيب الاتصال في العلا وأننا سنتجه لتبوك في اليوم التالي. إلا أن ذلك لم يحدث، إذ أمرنا الملك بقطع الرحلة والعودة إلى المدينة وجدة ومرافقته للرياض بأسرع فرصة ممكنة. وأنه بحاجة للأجهزة في الرياض للتخاطب مع جدة ومكة على مسافة ٦٠٠ ميل، وكان ذلك إطراءً غير مباشر من الملك تقديرًا لما تم إنجازه من عمل. تركت خلفي آسفًا آثار مدائن صالح النبطية شمال العلا وأرض مدين إلى الشمال، وخلال خمسة عشر يومًا التحقت بالملك في عاصمته الصحراوية الرياض.

إن مشروع ماركوني للاتصالات اللاسلكية بعد تلك الولادة المتعسرة لم يواجه بأية متاعب فيما بعد. ولا يزال إلى يومنا إحدى الإنجازات العظيمة لحكومة المملكة، وقد توسع كثيرًا عما كان عليه خاصة خلال الحرب الأخيرة بعد أن قامت الحكومة الأمريكية بتطوير الاتصالات اللاسلكية بصورة ملفتة للنظر.